أسرة شكسبير

كاتب الأعاجيب ليس فى سيرته خبر عجيب.

يقال هذا ويعاد فى مفتتح السير التى تروى لنا عجائب الأخبار فى الواقع والخيال، ويصدق على فئة كبيرة من أعلام الشعراء والكُتَّاب يصفون لنا أبطال العظائم والغرائب ويخلقون لنا من أخيلتهم سيرًا تشوقنا بما تعمله أو بما تلقاه من صروف المحن والتجارب، ونعود إلى سيرتهم فى وقائعها وأخبارها فنعجب لخلوها من العجائب، ونَحَار كيف نضعها مع السِّير التى وصفوها لنا كما خلقها الله أو وضعوها لنا كما خلقوها من صنع القريحة والخيال.

وأصدق ما تقال هذه الكلمة حين تُقَال عن وليام شكسبير، صاحب الروايات التى امتلأت بعجائب السير من وصفه ومما صنعه على يديه، ولا عجيبة فى سيرته من يوم مولده إلى يوم وفاته، إلا ما كتبه بقلمه وابتعثه على مسرح التمثيل ثم أبقاه على مسرح الحياة كأبقى ما يبقى الخلائقُ الأحياء.

إلا أننا – على ما يقال فى أحاديث الأرواح والأطياف – لا نبحث عن العجائب إلا وجدناها أمامنا، وإن لم نجدها على تقديرنا وحسباننا، ولعلنا لا نبحث عن العجائب إلا لأنها تستدعينا وتتخايل من وراء حجابها لنلقاها وتلقانا.

إن عظمة شكسبير أعجوبة خارقة، ولكننا لا نبحث عنها لأننا نراها حيثما رأينا شكسبير فى عمله، ورأينا أنه عمل عظيم قليل النظر بين أعمال النابهين على غراره.

ولكن العجيبة فى هذه السيرة التى لا عجب فيها أنه ولد حين ولد، وأنه رحل من مسقط رأسه حين رحل عنه، وما من عجب فى مولد أحد كما يولد سائر الناس ولا فى هجرته من مسقط رأسه كما هاجر فى زمنه مئات وألوف، ولكننا نعجب لهذا وذاك لأنهما توفيق من الحوادث يستوقف النظر ولو حسبناه فى عداد المصادفات، لأن المصادفات من هذا القبيل، جديرة بالتنبيه والتسجيل.

ولد شكسبير سنة ١٥٦٤م فى الوقت الذى نشأ فيه المسرح الثابت بخانات لندن وأصبح من ملاهى العاصمة التى لا يستغنى عنها أبناؤها ومن يرتادون خاناتها من وفود الريف، وعمد أصحاب الفرق التمثيلية إلى إقامة المسارح خارج أسوار المدينة بنجوة من تشريعها حين اشتدت وطأة الرقابة عليها من جانب عمدة العاصمة وزملائه فى إدارة مجلسها، ثم غلبت رغبة النظارة من الخاصة والعامة فى هذا الفن الجديد فاجتاحت أمامها عناد المجلس وبقايا العرف الموروثة وصلابة المتطهرين فى مقاومة كل بدعة تدخل فيما يسمونه بالملاهى أو الألعاب، فأذنت الملكة بإقامة المسارح فى المدينة وسوَّغت أمرها بما اشترطته آنفًا من اجتناب المساس بالدين والأخلاق وشئون الحكم فيما يعرض على مسارح التمثيل من قصة

أو غنـاء، وعادت الأوامـر الملكية التى تخطت تشـريع المدينة فى هذا الصدد فأكدت ما فرضته من قبلُ من شـروط الاستقامة و «حسن السـلوك» فيمن يشـتغلون بهـذه الصناعة، فلا يقبلـون فى زمرة الممثلين بالمسارح الثابتة إلا بشهادة من نبيل أو وجيه معروف عند ولاة الأمور.

وهاجـر شكسـبير إلى العاصمة حوالى سـنة ١٥٨٦م بعد ارتفاع الحظر على التمثيل فيها بقليل.

هاجـر إلى العاصمة وهو فى نحو الثالثة والعشـرين من عمره، لأنـه كان يعول أسـرة عجز عـن الإنفاق عليها وتدبير معيشـتها بوسـائله الميسـورة له ولأهله فى الريف، وكان أهله من الريفيين ذوى اليسار، فأصابت أباه عسرة وهو فى الثانية عشرة، وعاش فى كفالة أبيه إلى ما بعد زواجه على اضطرار قبيل بلوغه العشرين، فلم يطق أن يضطلع بأعباء أسرته بعد أن تزوج ووُلِد له الأبناء، وأوشك أن يطالب بالمشاركة فى معونة أبيه.

ترى هل كان يهجر الريف إلى المدينة لو دامت لأسـرته النعمة التى توارثتها من أسلافها؟

ترى هل كان يخطر له أن يشـتغل بالتمثيل لو بقى التمثيل كما كان قبل مولده صناعة من صناعات الأفاقين والجوالين الذين حشرهم العرف والقانون فى طغمة اللصوص والطرداء المنبوذين؟

أغلب الظن أنه كان يطاوع مَلَكة الشعر فينظم القصيدة كما نظمه أمثاله من الموهوبين، ويبلغ فيه غاية ما بلغه من الإبداع في مقطوعات الأغاني والموشحات أو في أقاصيص الغزل وتراجم الأساطير، وغاية ما بلغه في هذا الفن يسلكه في عداد المئات، أو الألوف، من شعراء الأمم في مختلف اللغات، ولكنه لا يرفعه إلى منزلة الآحاد الذين لا تنطبق على عدهم أصابع اليدين، كما ارتفع - بموازين النقد جميعًا - في فن الرواية المسرحية: فن الخلق والإبداع في تصوير النفوس وتصوير العلاقات بينها على السواء.

أما أن يلحق بالفرق الجوالة ويوطن النفس على عيشة كعيشة الطرداء والشذاذ فليس بالمستحيل ولكنه بعيد، وأبعد منه أن يرتقي في صناعة المسرح الجوال إلى مكان يحتفل به تاريخ الآداب.

إن القائلين إن السبب يبطل العجب يقولون صوابًا إذا أرادوا بمقالتهم أن عرفان السبب يريح من حيرة الأعجوبة التي تبده الذهن بما يذهله ويخالف مألوفه.

ولكنهم لا يقولون صوابًا إذا وقع في ظنهم أن الأعاجيب بغير أسباب، فإن أعجب الأعاجيب له سببه كهذه الحوادث التي تشيع بيننا كل يوم وكل ساعة فيما نسمعه أو نراه.

وليس بطلان الحيرة وبطلان العجب بسواء، فإن الحيرة قد تبطل في أمر نعرفه وننفذ إلى سره أو نحسب أننا قادرون على النفاذ إليه، ويظل الأمر بعد ذلك عجبًا نادرًا كأندر ما تكون الأعاجيب.

فربما كان شكسبير قد أحس فى صباه قدرة على النظم وراقه بعض ما اطلع عليه من مناظر التمثيل فى المدرسة أو فى أحاديث قرائها من أبناء قريته، وفيها من قراء اللاتينية غير قليل.

وربما استمع إلى أحاديث أبناء القرية العائدين من العاصمة يتندَّرون بفتنة لندن وفتنة هذا الفن الجديد الذى يناهض سلطان مجلسها ويقهره على قبول ما يأباه فى عقر داره، فلا يملك أن يشوقه فن العاصمة الفاتن من بعيد، وإن فتنته للمستعدين لأقوى سحرًا وأعمق أثرًا من فتنته لمن يأنسون به ولا يزيدون على النظر إليه.

ولكنه كان ينبغى أن يولد حين ولد، وأن تدركه العسرة حين أدركته وأن يهجر وطنه حين اضطر إلى الهجرة، لينبغ فى العمل الوحيد الذى كان نبوغه فيه أعجوبة الأعاجيب.

وهذه العبقرية على عظمتها إحدى عبقريات لا تحصى نعلم منها أن هذه الهبة العالية قد يوافقها زمان دون زمان، وقد تصلح لها حالة دون حالة، ولكنها تعم البيئات جميعًا فى الريف والحضر، وفى الرخاء أو الشدة، وفى شواغل العلم أو العمل.

* * *

كان مولد شكسبير فى ولاية وارويك بقرية ستراتفورد على أصغر الأنهار التى تُعرَف باسم «أفون» وهى كلمة قلتية تقابل كلمة «نهير» باللغة الإنجليزية.

واسم شكسبير قديم فى الولاية يتركب من كلمتين بمعنى هزاز الرمح، ولعله كان فى أصل التسمية لقبًا مقصودًا بهذا المعنى، لأن بحوث العلامة شيمبرز انتهت إلى رجل كان يسمى وليام شكسبير - كاسم الشاعر - قضى عليه بالموت فى سنة ١٢٤٨م لأنه كان يسطو على الأطراف يوم كان غزو الولايات والخروج على أمرائها آية من آيات النخوة والمخاطرة. وليس فى الأسانيد التاريخية ما يدل على صلة بين وليام شكسبير هذا ووليام شكسبير الشاعر.

أما أقدم المعروفين باسم شكسبير من المتصلين بنسب الشاعر فهو جده ريتشارد شكسبير المتوفى سنة ١٥٦١م قبل مولد حفيده بثلاث سنوات، وكان يزرع الأرض ويستأجرها ويرعى الماشية كما يؤخذ من حكم محفوظ بتغريمه اثنى عشر بنسا لتسريحه فى مراعى القرية قطيعًا يزيد على مائة رأس فى الرعية الواحدة.

وقد استقصى الباحثون فى سيرة الشاعر تراجم ثلاثة يدعون باسم جون شكسبير بين منتصف القرن ونهايته، وهم غير جون ريتشارد أبيه الذى تكرر ذكره فى سجلات القرية، وكان يختار له توقيعًا يشبه رسم القفاز لأنه يجهل الكتابة، وقد التبس الأمر على بعض الذين تصدوا لترجمته بعد اشتهار ولده فذكروا مرة أنه كان يحترف الجزارة ومرة أخرى أنه كان يحترف الدباغة، وربما اشتغل بذبح الماشية ودبغ الجلود لاستخدامها فى صناعة القفازات التى جعلها فى توقيعه شارة صناعته، ومن جراء هذا التوسع فى

أعمالـه تعرض للحكم عليه بغرامة «اثنى عشـر بنسًـا» لأنه ترك القمامة فى الطريق، وهو إهمال لا يسلم منه من يحتاج فى عمله إلى رعى الماشـية وذبحها ودبغ جلودها، وله فى هذه المخالفة شـركاء مذكورون فى سجلات القرية.

وليس لترجمة جون شكسـبير مصادر يوثق بها غير التوقيعات والعقـود المحفوظة فى تلك السـجلات، ومنها يعلـم أنه ظل على حالة محمودة من اليسـر والكفاية بعد وفاة أبيه، فاشترى فى سنة ١٥٥٦م بيتين من بيوت القرية الحسنة، وتزوج فى السنة التى تليها بمارى آردن بنت روبرت آردن صاحب الأرض التى كان يستأجرها ريتشـارد شكسـبير ويعيش من غلتها ومن رعى الماشية وبيعها، وهى فتاة متعلمة تنتمى إلى أسرة عريقة أغنى من أسرة زوجها؛ إذ كان أبوهـا يملك البيوت والأرض ويخـص مارى وحدها بعد وفاته بسـتين فدانًا غير بعض الحصص الموزعة فى ميراث الأرض والمال، ولا شـك أنه آثرها بأفضل الحصص بين أخواتها الثمان، إما لأنها كانت أصغرهـن أو لأنه كان يأنس فيها النجابة والتفوق فى الذكاء والمودة على أخواتها.

وولدت مارى لجون شكسبير طفلتهما حنة (١٥٥٨م) التى ماتت فى طفولتها، ثم طفلة أخرى سمياها مرجريت (١٥٦٢م) ماتت بعد خمسة أشهر، ثم ولدت أول أبنائها وليام (٢٣ أبريل سنة ١٥٦٤م) ورزقـا بعده بثلاثـة أبناء هم جلبرت وريتشـارد وإدموند وبنتين

هما: حنة وآن. وتوفيت مارى سنة ١٦٠٨م بعد وفاة زوجها جون بست سنوات.

وكانت حالة جون قد اطردت فى التقدم والرخاء بعد زواجه إلى سنة ١٥٧٥م حين اشترى منزلين آخرين غير منازله التى كانت له قبل الزواج، ثم تقلبت به صروف التجارة والصناعة فى أيام التحول الاقتصادى الذى طرأ فى البلاد الإنجليزية على تجارة الداخل والخارج ونظام التصدير والاستيراد وتداول المراكز التجارية بين القرى والحواضر ومدن السواحل، فطاحت الأزمة بعتاده وعتاد زوجته وأثقلت كاهله بالمتاعب والهموم حتى شغلته عن وظائفه العامة فى القرية، وكان قد تولى منها عدة وظائف هامة كأمانة الخزانة ووكالة الدعاوى ورئاسة المشايخ فاعتزلها أو عُزِل منها، وعيَّن مجلسُ القرية بديلا له لانقطاعه عن جلساته.

ويجهل التاريخ تفصيلات هذه المحنة لأنها لم ترد فى سجلات القرية المحفوظة، إلا ما كان من خبر هنا وخبر هناك عن القضايا التى رفعت عليه والديون التى طولب بها والعقود التى دونت فيها الرهون أو الإجارات، ولكن الخطأ فى محنته إنما كان من أخطاء الضرورة التى أوقعه فيها التوسع فى أعماله بين صناعة القفازات وزراعة الأرض وتجارة المبيعات من محصول الزراعة والصناعة ومباشرة الوظائف المتعددة فى مجلس القرية، وغير ذلك من متاعب البيت ومطالب البنين والبنات، ولم يثبت فى تاريخه المسجل ما يدينه بسيئة من سيئات الخلق أو سيئات الخطل المعيب.

ويظهر من أسماء ذرية شكسبير أن الأبناء والبنات من هذه الذرية كانوا يسمون بأسماء أقربائهم وقريباتهم من العمومة والخئولة، وأنهم كانوا يقيمون فى قراهم ولا يطلبون الاغتراب عنها، وأن إخوة شكسبير الذكور لم يعمروا ولم يخلفوه، إذ مات جلبرت فى السادسة والأربعين ومات إدموند فى السابعة والعشرين ومات ريتشارد فى التاسعة والثلاثين، ولم يشتغل منهم غير واحد بصناعة التمثيل وهو أصغرهم إدموند الذى ولد سنة ١٥٨٠م وتوفى سنة ١٦٠٧م.

وقد توفيت البنات صغيرات، فماتت حنة الأولى وأختها مرجريت فى سن الرضاع، وماتت آن أصغرهن فى الثامنة من عمرها، ولم تبلغ منهن سن الشيخوخة غير حنة الثانية التى سميت على اسم أختها المتوفاة، فإنها ولدت سنة ١٥٦٩م وتوفيت سنة ١٦٤٦م.

* * *

فى هذه الأسرة الريفية نشأ وليام شكسبير بن جون بن ريتشارد شكسبير، ويخيل إلينا الآن أنه يحل منها فى مكان ناشز غير معد لأمثاله. لأنها فى جميع سماتها وعاداتها تطرد على شاكلة الأسر الريفية التى تتطلع إلى الستر أو الوجاهة ولا تطمح إلى مكان فى العالم فوق ذلك أو وراء ذلك، ثم يصعد من بينها هذا الاسم الذى لا يدانيه فى آفاق الشهرة الإنسانية غير آحاد معدودين،

فليس فى أبناء الأسـر المالكة ولا فى أبنـاء العروش الإمبراطورية من اشتهروا مثل شهرته وعنى الناس بأقوالهم وأخبارهم عنايتهم بأقواله وأخباره، وإذا استثنينا الرسل والأنبياء من أصحاب الأديان الكبرى فليس فى أصحاب الأقلام منذ كتب الإنسـان بالقلم عشـرة يعـدون معه فى الصف الأول الذى تقدم إليه بين الصفوف العباقرة العالميـين. لا جـرم يتخيل المتخيل حين ينتقل من سـيرة ذويه إلى سيرته أنه ينتقل من جو إلى جو ومن عالم إلى عالم، وأن هذه الشهرة الضافية نشـوز فى تلك الرقعة الضيقة مـن تلك القرية المنزوية فى بعض الطريق.

لكن الواقع أن وليام شكسـبير، قبل اشـتهاره وبعد اشتهاره، هو ابن تلك الأسـرة فى الصميم، وهو سليلها الذى نعرفه ونعرفها فلا ندرى كيف ينشـأ فى غيرها، وهو بتلك الخلائق وتلك المشارب وتلك السيرة من المولد إلى الممات.

وما مـن علم من أعلام التاريـخ يغنينا العلم به عـن العلم بكل صغيرة وكبيرة من شـئون أسـرته إذا اسـتطعنا النفاذ إلى بواطنها وأسـرارها؛ لأننا نفهمه كلما فهمنا كيف نشـأ ومن أين أتى وماذا أخـذ وماذا ترك من طبائـع وسمات تظهر فى قومـه أو لا تظهر، ولكننـا أحوج ما نكون إلى العلم بتاريخ الأسـرة فى هذا المقام، لأن القليـل الذى علمناه منه يفسـر لنا الكثير مما يحسـبه المترجمون ألغازًا فى حياة الشاعر والفنان، ولو ازددنا علمًا بتاريخه فى قريته وفى بيته لما بقى فى سيرته ما يحسب فى عداد الألغاز.

ولد وليام فى الثالث والعشرين من شهر أبريل سنة ١٥٦٤م، وعمد فى السادس والعشرين من ذلك الشهر فى كنيسة القرية، فكتب اسمه فى دفاترها كما يكتب بالصيغة اللاتينية، وتولى تعميده فيها القس برتشجيردل Bretchgirdle المشهور بحماسته للدعوة البروتستانتية، وكان قس الكنيسة يوم كان جون شكسبير من أمناء مجلسها.

ولا يعرف على التحقيق شىء عن تعليم وليام قبل سن التلمذة فى مدرسة القرية، فربما تعلم مبادئ الهجاء والمطالعة فى البيت قبل الثامنة من عمره: تعلمها من أمه إذا صح أنها كانت على معرفة حسنة بالكتابة كغيرها من بنات أغنياء الريف، أو تعلمها من مدرس يزورهم بين زوار أبيه، وكان يومئذ من وجوه القرية المقصودين.

وحانت سن القبول فى مدرسة القرية فدخلها وانتظم فى فصولها نحو خمس سنوات، وقد كان لهذه المدرسة نظار من خريجى جامعة أكسفورد يذكرون بأسمائهم فى سجلات المجلس والكنيسة، وكان برنامج الدراسة فى هذه المدارس التى اشتهرت باسم مدارس الأجرومية الحرة متفقًا على دروس مقررة فى أنحاء البلاد الإنجليزية، يتلقى التلاميذ بعد مبادئ القراءة والحساب طرفًا من اللغة اللاتينية، ويقرأون فيها حكايات إيسوب ومختارات من شيشرون وفرجيل وهوراس وأوفيد، ويمثلون بعض مناظر بلوتس وسينكا ويستظهرون نبذًا من كتابات البلغاء فى القرون الوسطى،

ولا يدرسون من الإغريقية إلا ما يمكنهم من مراجعة الآيات فى الكتب الدينية.

وحلت الضائقة بوالد وليام وهو فى نحو الثانية عشرة، فترك المدرسة فى هذه السن أو بعدها بقليل، وعكف على مساعدة أبيه فى صناعته وتجارته ورعى ماشيته، وهى أعمال يستفيد منها الصبى الناشئ خبرة بالناس وبالطبيعة قلما تتيسر له فى كتبه المدرسية.

وفى الثامنة عشرة تزوج بـ «آن» كبرى بنات أبيها من أسرة هاثواى الريفية، وكانت تكبره بثمانى سنوات، لأنها توفيت سنة ١٦٢٣م وهى فى السابعة والستين، فكان مولدها بين سنة ١٥٥٥م وسنة ١٥٥٦م، ويفهم من صيغة وثيقة الزواج أنه تم بعد تردد من الأسقف المنوط به تدوين هذه العقود؛ فإن الوثيقة كتبت فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٥٨٢م، وفى الثامن والعشرين منه كتبت وثيقة أخرى يشهد فيها رجلان من مقدمى الفلاحين أنهما مسئولان عن كل طعن فى الوثيقة يعرض الأسقف لتبعة المخالفة لحكم القانون.

ويظهر بعد ذلك من تاريخ ولادة البنت الكبرى «سوسن» وليام شكسبير أن أسقف التعميد داخلته الشبهة لسبب لا يخفى، فإن الطفلة عمدت فى السادس والعشرين من شهر مايو من السنة التالية أى بعد ستة أشهر من تاريخ وثيقة الزواج، ووجب الاعتراف بهذه الشبهة التى بادرت الأسرتان إلى الاتفاق على تصحيحها، إثباتًا

للعلاقة الشـرعية دون مساس بصحة التسجيلات فى تاريخ الزواج أو تاريخ الولادة.

* * *

وبعد ولادة سوسـن بسـنتين (فى الثانى من شـهر فبراير سنة ١٥٨٥م) ولد له توأمان - ذكر وأنثى - سمى الذكر هامنت والأنثى جوديـث، وأصبح لزامًا عليه أن يبحث عن مورد للرزق غير مورده النـزر المضطرب الذى يأتيه من معونة أبيـه فى متجره ومصنعه، وكانـت الضائقة التى حلت بأسـرته تسـتحكم وتتـأزم ولا تؤذن بانفراج قريب، ففى السنة التى ولد فيها هذان التوأمان اضطر أبوه إلى التخلف عن أعماله بمجلس القرية ودواوينها، فخسـر وظائفه فى الحكومة كما خسـر ثروته فى التجارة والصناعة، وأصبح لزامًا على وليام أكبر أبنائه ورب الأسـرة الوحيد بينهم أن يستقل بعمل يكفيه أو يهجر القرية ليعول نفسه وأهله ما استطاع.

ومـرت من أواخر هذه السـنة إلى سـنة ١٥٩١م فـترة فراغ فى ترجمة وليام لم يسمع فيها خبر عنه فى القرية ولا فى لندن حيث يغلـب على الظن أنه أقام فى هجرتـه الأولى، وكثرت الأقاويل عن هذه الفترة على غير هدى لملء هذا الفراغ.

ولإيضـاح الغوامـض والشـبهات التـى أثارتها بحـوث النقاد وشكوك المعترضين والمعجبين معًا بعد استفاضة ذكره وتشعب الآراء فى نسـبة أعماله إليه أو إلى غيره. ويذهـب الأكثرون من أصحاب

الأقاويـل المختلفة فى ملء فراغ هذه السـنوات مذاهب من الظن أو التخمين لا سند لها من الوقائع ولا من الشهادات المسلمة أو الوثائق المتفق عليها، وإنما يأخذون فيها بالقرينة والاحتمال القريب قياسًا علـى المعهود من أحوال العصر أو أحوال المترجم وأمثاله، وبعضها رجم بالظن لا يرجع إلى شـهادة عيان ولا إلى شـهادة سماع مقبول، وقد تكون القرينة فى نفيه أقوى من القرينة فى ترجيحه.

فمن قائل إنه هجر القرية هربًا من القصاص الذى أنذره به أحد النبلاء فى الإقليم - سـير توماس لوسى - لأنه علم أن وليام يطارد الصيد خلسـة فى أرضه بجوار سـتراتفورد، ومـن قائل إنه هرب مـن القرية على غير علـم من أهله ليلحق بفرقة مـن فرق التمثيل الجوالـة فى الريف، ومن قائل إنه خرج مـن الجزيرة البريطانية كلها فـى رحلة من رحلات البعوث العسـكرية التى كانت تتردد ذهابًا وجيئة بين إنجلترا وشـواطئ أوربا الغربية، ويعتقد صاحب كتاب «شكسبير الحق» أنه لم يقصد إلى لندن عندما هجر قريته على أثر مولد طفليه، بل قصد توًّا إلى بليموث وركب البحر منها إلى بلاد المشـرق بعد زيارة البلاد الإيطالية، لأن أوصافه لهذه البلاد أحجى أن تكون أوصاف خبرة عيان[1].

ويعتقد صاحب كتاب «شكسـبير بـين الصدق والرواية» أنه كان يختلف إلى جامعة أكسـفورد قبل زواجه بسنوات، وأنه لم ينقطع

(1) The Real Shakespeare by William Bills.

عنها إلا بعد عقد الزواج وإلحاح الحاجة عليه بالتماس وجوه العمل لتدبير نفقات البيت، وأنه عمل بمدرسة القرية فى هذه الفترة كما جاء فى بعض أنبائه، ولا يتشكك صاحب هذه الرواية فى احتمالها لخلو دفاتر القيد بالجامعة والمدرسة من اسم شكسبير، إذ كانت هذه الدفاتر خلوًا من بعض الأعلام الذين حضروا دروس الجامعة باتفاق المؤرخين وأشهر هؤلاء الأعلام «أوليفر كرمويل» زعيم الثورة بعد جيل شكسبير[1].

ويتساوى ملء الفراغ بهذه الأقاويل وترك الفراغ لمن يشاء أن يملأه بأمثالها من التخمينات التى لا تقطع فيها الحجة بنقض ولا بتوكيد.

قال الشاعر الناقد جون ماسفيلد فى كتابه عن شكسبير بعد الإلمام بطائفة من هذه الأقاويل: «كل هذا ليس بالبينة ولا بالرواية ولكنه تخمين جامح، وقد يقال مثله إنه ارتقى عرشًا أو صار من قدماء الرومان أو عمل فى صناعة النسيج أو افتتح حانة شراب، ولا فرق فى السند بين ما قيل وما يقال على هذا المثال».

* * *

هذه قيمة التخمينات والفروض التى تواترت فى أقوال الشراح والنقاد لملء فراغ هذه السنوات فى ميزان ناقد ملهم معجب أيما

(1) Shakespeare Truth and Tradition by John Simple Smart.

إعجاب بالشاعر الكبير، وليس فى كلامه عن تلك الفروض مبالغة فى جوهر الحقيقة، إلا أن تكون مبالغة السخرية والتعميم، يستدركها من شاء بالتفرقة بين الفروض التى تركن إلى سند من الواقع وصدق الظن والفروض التى لا تركن إلى شىء غير الوهم وخبط عشواء.

وبعد هذه الفترة من الفراغ فى سيرة وليام نسمع به فى سنة ١٥٩١م، ونعلم أن هذه السنة كانت نهاية السنوات العجاف فى حياته، وأنه قد انتظم فى صناعة التمثيل والتأليف، وعمل فى أكبر الفرق التمثيلية وهى فرقة الإيرل أف لسيستر التى من أجلها أباحت الملكة اليصابات إقامة المسارح فى العاصمة.

وهنا محل لاستقصاء فرض من الفروض التى ذهب إليها مؤرخوه ليملأوا به فراغ السيرة فى السنوات الخالية، ولكنه فرض له سند من الواقع والاحتمال جدير بالالتفات إليه من طرفيه.

فمن المحقق أن وليام لم يشتغل بالتمثيل فى تلك الفرقة إلا بعد تمهيد طريقه إلى قصر آل لسيستر للظفر بالشهادة التى لا غنى عنها لمن يريد أن يشتغل بالتمثيل ولا يحسب - فى رأى الشرطة - من طغمة الشذاذ والأفاقين.

ومن المحقق أن «لسيستر» غادر لندن على رأس بعثة عسكرية إلى الأرض الواطئة لمؤازرة الهولنديين فى حربهم للدولة الإسبانية، وكانت مغادرته للعاصمة فى سنة ١٥٨٥م التى انقطعت فيها أخبار وليام من القرية ومن العاصمة ومن كل مكان فى الجزيرة البريطانية.

ومن المحقق أن لسيستر قد استدعى للسفر فى حاشيته الممثل الهزلى كمبس Kemps الذى كان نديمه المختار من رجال فرقته وكان فى قصره بمثابة «المضحك» الخاص فى قصور الملوك الأقدمين، ولا يبعد أن يكون قد صاحبه فى تلك البعثة أيضًا خمسة من ممثليه الذين زاملهم شكسبير بعد ذلك فى الفرقة التمثيلية، لأن هؤلاء الممثلين الخمسة – وبينهم أشهرهم جورج بريان – كانوا يستدعون للتمثيل فى القصور الملكية بين سنتى ١٥٨٦م، ١٥٨٧م ويقيمون الحفلات فى بلاط الدنمارك وبلاط سكسونية، كما جاء فى أخبار دعوات البلاط بالمملكتين.

ويلاحظ أن «كمبس» الذى لا شك فى سفره مع لسيستر فى بعثته إلى هولندا كان مقيدًا فى هذه البعثة باسم دون جولهلم Gulihelmo ولم يقيد باسمه المشهور بين رواد المسرح، فلا يبعد أن يكون وليام وزملاؤه – فى المستقبل – قد دخلوا هذه البعثة بأسماء غير أسمائهم المتداولة فى غير السجلات العسكرية، وأنه مهد طريقه إلى صحبة لسيستر أثناء غيابه عن البلاد الإنجليزية، لأن التعرف إلى هذا القائد النبيل صاحب المقام الأول والحظوة الأثيرة فى البلاط لا يتم بعد عودته من القارة فى وقت قصير.

والمعروف من سيرة وليام بعد سنة «١٥٩١م» قليل بالقياس إلى أخبار نظرائه وإن لم يكن أقل من أخبار معاصريه، ولكن هذا القليل كاف للعلم بنجاحه وارتفاع شأنه، وانصراف همته إلى تعزيز

مكانتـــه فى المجتمع ورد المفقود من تراث أهله فى قريته، فحصل على حلة من حلل التشـــريف «الرسمية» تخوله التلقب بلقب السيد أو الجنتلمان، وسُجل أداء الرسوم لهذه الحلة فى شهر أكتوبر سنة «١٥٩٦م» وشـــارك فى مسارح العاصمة مع انتمائه إلى فرقة لسيستر إلى آخر أيامه فى التمثيل، وحاول جهده أن يستعيد حصص الأرض التى ضاعت من أســـرته بالرهن أو البيع، واســـتعاد منها ما ارتضى مالكوها أن يبيعوه، واقتنى البيوت والأكواخ لسكنه وسكن أقربائه، واشترى فى سنة ١٦٠٢م مائة وسبعة وعشرين فدانًا فى ستراتفورد القديمة، ثم عاد إلى مســـقط رأسه ليقيم فيه سنة ١٦١١م، وبقى ثمة إلى أن أدركته الوفاة ســـنة ١٦١٦م فى الثانية والخمسين من عمره، لا يفـــارق بلدته إلا لينظر فى بعض أعماله بالعاصمة، ثم يكر إليها راجعًا متـــزودًا له ولأقربائه فيها بما تتطلبه حياة المســـتورين من أهل الريف.

وفى أوائل سنة ١٦١٦م أحس الشاعر بدنو أجله فكتب وصيته فى شـــهر يناير من تلك السنة ونقحها فى الخامس والعشرين من شهر مارس قبل وفاته بأقل من شهر، وأوصى فيها بحصص مقدرة من المال والأرض والعقـــار وبقايا الأثاث والعتاد لزوجته ومن بقى من ذريته بقيد الحياة، وهن سوســـن بنته الكبرى، وجوديث بنته الصغرى، وحفيدتـــه اليصابات، لأن ابنه الوحيد «هامنت» كان قد مات صغيرًا سنة (١٥٩٦م) فى الحادية عشرة من عمره، وأوصى ببعض الهبات

والهدايا لفقراء القرية ولأفراد من مساعديه وصحبه، ولم يذكر شيئا في الوصية عن حصصه في المسرحين اللذين كان شريكا فيهما إلى ما بعد سفره من لندن، كأنه كان قد باع ما يملكه في غير قريته حين شعر باقتراب أجله.

ومات في الثالث والعشرين من شهر أبريل، أي في نفس اليوم الذي ولد فيه، وأعد قبيل وفاته أسطرًا من الشعر أوصى بكتابتها على ضريحه في مقبرة الكنيسة، فحواها التذكير بحرمة العظام المطوية في رجامها، ودعاء بالبركة لمن يرعاها وباللعنة لمن يحركها من مكانها.

وقد كتبت الأسطر المنظومة بلغة ساذجة تشبه لغة العامة، واستدل بعض المتأخرين بهذه السذاجة على أن الأسطر المنظومة وأشعار الروايات والدواوين لم يكتبا بقلم واحد، ولكن الأسطر ولا شك كانت مكتوبة باللغة الشائعة في القبريات التي تعودها أبناء الريف، ولم يكن من السائغ أن تكتب بالأسلوب الفخم الذي يتخيره الشعراء لمنظوماتهم الأدبية.

ونسي أناس آخرون من الشراح والمعقبين زمان الشاعر ومكانه في موطنه، فوهموا أنه كتب تلك القبرية لأنه توقع أن تحتفي الأمة بذكراه وتنقل رفاته إلى المكان الذي جعلوه بعد ذلك مثوى للعلية من النوابغ والعظماء في كنيسة وستمنستر، ولكن القبرية تفهم على وجهها الصحيح من حيث الأسلوب والمعنى إذا فُهِمت

علـى أنها «وصية محليـة» يقرأها أبناء تلك الجـيرة ممن يطيفون بالمقبرة ويباشـرون دفن موتاهم بين جدرانها، وقد زار ستراتفورد قبل نهاية القرن السابع عشر (١٦٩٤م) أديب من خريجى أكسفورد يسـمى وليام هول، فقال فى رسالة كتبها إلى صديق: «إننى ذهبت فى اليوم التالى لزيارة رفات شكسـبير العظيم المدفون فى الكنيسة، فقرأت الأسطر التى أمر فى حياته بحفرها على شاهد قبره، وفيها مـن قلة الدلائل علـى العلم ما قد يبين عن قلته فى غيرها لولا أنها تنطوى على شىء يحتاج إلى تعقيب. فإن فى الكنيسة موضعًا يطلقون عليه اسم منزل العظام ويودعونه بقايا العظام المستخرجة من حفائر المقـبرة، وهى من الكثرة بحيث تملأ المركبـاتِ الكثيرة، وقد أراد الشـاعر أن تـترك عظامُه آمنة فـى مثواها فلعن مـن ينبش عنها ترابهـا، ووجه الخطـاب إلى عمال الكنيسـة وخدمتها، وهم على الأغلب الأعم شرذمة من أجهل الناس...».

* * *

وليست هذه الصفحة الأخيرة بالصفحة الوحيدة التى نفهمها حق فهمها حين نفهم وليام شكسـبير فى قريته وبين آله وعشيرته؛ فإن السيرة كلها صفحات لا نفهم سطورها ولا ما بين سطورها بمعزل عن بيئة القرية وما احتوته من بيئة الأسرة بين جوانبها.

فينبغـى أن نحضرفى أخلادنا أن وليام شكسـبير - فى أخلاقه وعاداتـه - وريث أسـرة ريفية حريصة جد الحرص على السـمت

والسمعة وكرامة الجاه على سنة أهل الريف فى عصره، وأنه كان بين إخوته سليل جيل قصير الأعمار يندر بين رجاله خاصة من كان يناهز سن الشيخوخة أو يقارب الستين.

ويغنينا إحضار هذه الصفة فى أخلادنا عن أسئلة كثيرة سألها المترجمون والشراح ونظروا فيها إلى سيرته العالمية دون أن يرجعوا بها إلى سيرته فى أسرته وقريته فضلوا عن جوابها فى متاهة الظنون، وإن جوابها لعلى منال اليد منهم لو التفتوا إليه.

لماذا هاجر من قريته؟ ولماذا توارى عن الأعين والأسماع ست سنوات أو سبعًا بعد هذه الهجرة؟ لماذا كف عن الكتابة بعد الأربعين بقليل؟ لماذا ترك لندن وانزوى فى قريته ولما يجاوز الخامسة والأربعين؟ من أين جاءه العلم بمراسم الشريعة وإجراءات الدعاوى ومصطلحات المحاكم والقضاة؟ ومن أين جاءه العلم برياضة الصيد وطبائع الحيوان؟

أسئلة لا يسألها من عرفه متصلًا بمسقط رأسه مشاركًا لآله وعشيرته فى عاداته وشمائله ومعايير السمعة والشرف فى نظره.

فهجرته من قريته فى الموعد الذى هاجر فيه بعد أن عال وثقلت نفقته على أهله وثقلت نفقتهم عليه، وولد له فى سنة الهجرة توأمان، وأبوه يخسر جاه الوظيفة وجاه التجارة فى تلك السنة ولا يحسن بابنه الشاب فى نحو العشرين أن يبقى كَلًّا عليه، وباب

الهجرة مفتوح على مصراعيه أمام شبان القرى والعواصم مع بعوث السلم والحرب فى المشرق والمغرب.

وكما هجر قريته يوم اضطر إلى الهجرة عاد إلى الظهور يوم استطاع أن يظهر بعمل مرضى موفور الكرامة لا يخجله أن ينتسب إليه إذا استعان بمورده منه على معونة أهله.

ولقد كف عن الكتابة قبل الخامسة والأربعين، فكان قعوده عن عمله الناجح من غرائب سيرته التى لا بد لها من تأويل لا يستغربونه كما يستغرب من المؤلف الناجح هذا القعود فى عنفوان قواه. فلماذا لا يكون هذا التأويل أنه لم يكتب ولم يقعد عن الكتابة، وإنما كتبت له الروايات والقصائد ومات كاتبها المزعوم فانقطع فى وسط الطريق.

ولكن الخامسة والأربعين، أو نحوها، ليست بمنتصف الطريق عند من يبلغ أمده فى الثانية والخمسين، وليس المضى فى الكتابة بالعمل الميسر لمن يشرف على مسرحه ويشرف معه على مسرحين كبيرين له فيهما حصة الشريك وحصة الخبير بشئون التمثيل والإخراج، وقد تشغله من قبل أسرته وعشيرته أعمال تتجدد وتتكاثر عامًا بعد عام، على قلة المعين وشدة العناية بمن يعولهم هنالك من صغار أو كبار.

ونجاح المؤلف فى كتابة الروايات لا يعنى أنه يملك باختياره أن يمضى فى كتابتها إلى غير انتهاء، فربما كان الانتهاء إلى القمة

غاية شـوط النجاح، وربما كان المؤلف قد اسـتنفد حاجته وحاجة عصره إلى هذا النمط من الروايات كما ظهر من هبوط منزلة المسـرح بعد عهد الملكة اليصابات بقليل.

وقد أقام الشـاعر فى لندن ما أقـام فلا نخال أن مقامه بها زهده فى معيشـة الاسـتقرار والسـكينة بين أحضان الطبيعة، إذ كانت لندن فى أوائل القرن السـابع عشـر تسـتهل عهد العظمة والصولة ولكنهـا كانت أبعد شـىء عن الطمأنينة والدعـة، وكانت تجتذب إليها طلاب المغامرة والمخاطرة وتضطرب بلواعج النزاع على مذاهب الديـن ومذاهـب الفكر ومآرب السياسـة بين بيوت الملك وأشـياع المتألبين لها من أصحاب الدولة الدائلة أو أصحاب السـلطان القائم، وقد رأى شكسـبير فيها مصارع خمسة أو ستة من أصدقائه النبلاء والمتأدبين، طاحت رؤوسـهم أو نكبوا فى مناصبهم وأموالهم، ولم يسـلم صاحبه لسيسـتر من بينهـم بعد الحكم عليـه بالموت إلا لما صادفـه من الحظ والحظوة فى أعين الملكة التى كانت تدنيه وتقصيه على حكم الدسيسـة والفتنة، ولم يسـلم صديقه الشـاعر مارلو من الاتهـام بالكفـر ولا من الاغتيال المريب مـع اتصاله الخفى بعيون الدولة وجواسيسـها، وليس من شـأن هذه الحياة القلقة أن تصرف رجلًا فى مزاج شكسـبير عن الحنين إلى قريتـه ومآلف صباه، بل لعلهـا عجلت بعزيمة العودة إليهـا وجعلت هذه الراحة أمنية من

أمانـــى النجاح فى عمله، وقد يحن مثله إلى اللياذ بأحضان الطبيعة ولو لم تربطه بها مآلف الصبا وأواصر الجيرة والقرابة.

وقد تقدم أن المتشـــككين حســـبوا من غرائب هـــذا القروى الذى خرج من مـــدارس الريف قبل أن يكمل تعليمه فيها أنه يعرف من مراســـم القضاء ومصطلحات المحاكم ما تحتويه الروايات المنسوبة إليه، ولكن هذه النشـــأة القروية – نشـــأة شكسبير خاصة – أحجى أن تمنـــع العجب وإن كانت لا تمنع الإعجاب، فإنه نشـــأ فى بيت يكثـــر فيه الكلام عـــن القضايا والدعاوى ويعمل أبوه فى مجالســـها ومنتدياتها، وما لم يعرفه من وظيفة المجلس فهو خليق أن يعرفه من عقود الصفقات والمعاملات التى ســـيق إليهـــا فى حالتى رواجه وكســـاده، وخليق بابنه الأكـــبر أن يزداد علمًـــا بأحاديث القضايا والذرائـــع القانونية بعد هجرته من القريـــة إلى عاصمة المملكة فى عصر المحاكمات والتهم والوشـــايات، وهى مـــن ضروب الأحاديث التـــى تطـــول جرائرها إلى زمن بعيـــد، ولا تخلو حواشـــى النبلاء وحلقات الأدب والفن من اللغط بها والتشدق بعباراتها وادعاء العلم بخفاياها والتشيع لهذا أو ذاك من المدعين أو المدينين فيها.

أمـــا العلم برياضـــة الصيد فلا يســـتغرب من القـــروى المقيم فى الريف، ولا سيما الريف الذى ولد فيه الشاعر واشتغل فيه بتربية الحيوان ورعايته على مقربة من مروج الصيد المشـــهورة فى الأقاليم الإنجليزية، ومن عادة المشاهدين للصيد أن يشهدوه فى الخلاء وعند

أرباض المدن ولا يشهدوه حيث يقيم النبلاء فى عمائرهم وقصورهم، ومنها ما لم يكن محجوبًا عن شكسبير أيام انتمائه إلى رعاة المسرح من أولئك النبلاء.

ولنسأل ما شئنا أن نسأل عن غرائب هذه العبقرية العالمية فإننا لا نهتدى إلى جواب سؤال منها إذا ابتعدنا بها عن قريته وأسرته، ولعلنا حين نقترب بها من القرية والأسرة لا نحتاج إلى سؤال.

* * *